الرؤية السردية في رواية "سرادق الحلم والفجيعة " لعز الدين جلاوجي [1] .

د. أحمد جاب الله

جامعة الحاج لخضر باتنة (الجزائر)

Résumé :

Cette étude explique les bases de la vision narrative, chez l'écrivain Algérien Azzedine DJLAOUDJI l'un des jeunes écrivains, je veux dire du génération de l'indépendance, qui sont très mal de la dégradation et la dégénérescence du pays dans tous niveaux et secteurs, le roman (SURADIK AL HULM OUA AL FADJIAA) est venu comme expression de ce sentiment de deuil qui remplit les jeunes du monde arabe en général, et la génération de l'indépendance de l'Algérie en particulier. Nous avons essayé de suivre les symboles de l'écrivain et ses signes pour l'analyse, et concevoir tous leurs significations apparentes et non apparentes.

الرؤية من أهم عناصر العمل الروائي التي تعكس أصالة الكاتب وثقافته واتجاهه ، وموقفه مما يدور حوله، وقد اهتم بها الكثير من النقاد ودارسي الأعمال الأدبية ، كما يعد مصطلح رؤية العالم من أهم المفاهيم التي تقوم عليها البنيوية التكوينية، حيث يحددها لوسيان جولدمان (Lucien Goldman) بمجموعة " من التطلعات والمشاعر والآراء التي تضم مجموعة اجتماعية (عادة طبقة اجتماعية)، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى ، فيولد تيار حقيقي لدى مجموعة يحققون جميعا هذا الوعي بطريقة واعية ومنسجمة إلى حد ما" (2). إن طبيعة البنية الذهنية باعتبارها مجال العلاقة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي، تكشف"أنها ليست ظواهر فنية، وإنما هي ظواهر اجتماعية ، فالأفراد الذين يوجدون في وضعية مماثلة ، ويقومون بنشاط مشترك هم وحدهم القادرون على إنتاج بنية ذهنية ، أما الفرد وحده فهو عاجز عن تحقيق ذلك"(3)على ضوء تصادم هذه البنى وتواؤمها "يعد الأدب هو الواقع الجدلي الذي تلتقي عنده عبقرية الفرد بروح الجامعة"(4).

إن رؤية العالم تختلف عن أشكال الوعي البسيطة التي نجدها منتشرة في الواقع الاجتماعي لدى كل الطبقات دون استثناء, فهي درجة من الوعي لا يملكها عامة الناس، بل تجد مجالها عند الصفوة المثقفة ، وكبار الكتاب والفلاسفة الذين يستطيعون التنظير للطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها ، وقد قدم لوسيان جولدمان(Lucien Goldman) لتحديد خصوصية الرؤية للعالم تمييزا بين أشكال الوعي المتداولة في الطبقات الاجتماعية ، وهي الوعي

الواقع (Conscience réelle)الذي يوجد على مستوى السلب ، وينحصر في مجرد وعي الجماعة بحاضرها المرتبط بمشكلة هذه الجماعة ، والوعي الممكن (Conscience Possible) الذي ينشأ عادة عن الوعي الواقع، ولكنه يتجاوزه ليشكل وعيا بالمستقبل، فالوعي الممكن مرتبط بالآمال والحلول التي تغير الواقع وتطرح البدائل(5) .

إن ثقافة الكاتب وقدرته الكبيرة على ترويض الأداة اللغوية وطول مراسه كلها مزايا تؤهله إلى التقاط الأسئلة الواقعية المحيرة وتصوير الحالات النفسية القلقة ، وإثارة القضايا المصيرية للمجموعات البشرية، بحثا عن أسباب الأزمة، إلا أن ذلك قد لا يكفي للوقوف على الأسباب الحقيقية للأزمة، بل يجب أن تكون لدى المبدع نفاذ البصيرة من حيث معرفته المباشرة للوعي الفعلي للجماعات البشرية (6).

في متن "سرادق الحلم والفجيعة" عدة طبقات اجتماعية وظفها عز الدين جلاوجي لكي تخدم النسيج السردي للمتخيل المدروس، وتحقق رؤيته للعالم، فمن الطبقات الاجتماعية في المتن السردي نجد:

طبقة مهمشة ومغتربة تضم أصحاب العقيدة الصافية السمحة من(المبدعين والمثقفين الأصليين).

وطبقة حاكمة متسلطة استولت على السلطة بطريقة مشبوهة تضم (أصحاب الأحذية الخشنة، هولاكو، الغراب، لعن وقبحون).

طبقة خادمة ومناصرة للطبقة الحاكمة من الوصوليين الانتهازيين وتضم(الحلزونات، والطحالب الملتصقة بالمدينة المومس،الأخدان، الدود).

طبقة فاضلة وتضم(الشيخ المجذوب، الشيخ مولانا و الحبيبة نون، حي بن يقظان، الهدهد، شهرزاد، عسل النحل ، نور الشمس، شذا الزهر، سنان الرمح ، الأسمر ذو العينين العسليتين، النخلة الصلعاء، هنابال بن رافض).

طبقة مدنسة تضم (المدينة المومس، نعل، المبولة، شهريار، القارح بن التالف، الفاني بن غفلان، ودخل بن دغل، هيان بن بيان، الفأر، الدود، العجائز، الشياطين العفاريت، المردة، ياجوج وماجوج).

تمثل رواية " سرادق الحلم والفجيعة "أزمة الذات الواعية في تمثلها لمقتضيات دورها الاجتماعي والثقافي تتجاذبها قوتان عاتيتان؛ فهي بين أن تظل صامدة متماسكة متمسكة بالمبادئ السامية والقيم النبيلة التي هي جسر تعبُر عليه إلى تحقيق الحلم المتمثل في لقاء الحبيبة "نون" وهي مدينة الأحلام التي يحاول السارد أن يتمسك بذكراها ولقياها وإما أن يقذف بنفسه في قاذورات المدينة المومس وهي مدينة منفصلة عن عالم الإنسان ، كل شيء فيها موت وخراب ودمار وانحلال ورذيلة ، إنها مدينة مومس تبيع نفسها لكل المارة والعابرين، وهي مع ذلك غاوية ليس لها همّ غير إشباع رغباتها وغرائزها التي استأثر بجلها "الغراب" ومعاونه "نعل" ومن ورائهما آلهة الخفاء "النسور"، وهذا ما أغرى بالمدينة المومس جموع الثعالب والفئران والكلاب والدود وكلهم من حثالة القوم.

لكن السارد لم يظلَّ وفيا للحبيبة "نون" ؛ فالموقف أكثر إغراء من أن يدعه على ذاك الوفاء، وفجأة تتعطل لديه حاسة الشم فلا تنبعث من "المبولة" أية روائح كريهة ، وتتبلد حاسة الذوق لديه ، وتصيح به الفئران : « لا تخفْ اذهبْ فلقد حلت عليك لعنتنا إلى الأبد ... اخرج منها فإنك رجيم وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين» (7)، ويجرفه حب المدينة المومس، فينقلب على أصحابه زملاء الدرب الأوفياء المخلصين؛ ذي العينين العسليتين، وعسل النحل، ونور الشمس وشذا الزهر وسنان الرمح، ويقرر القضاء عليهم، لكن الشيخ المجذوب يتمكن منه، ويرده إلى رشده، ثم يأمره بصناعة الفلك المنجي من الطوفان الذي سيغرق المدينة، إلا أن الرواية تنتهي ولا يجيء الطوفان وتظل المدينة في غيها

ورذيلتها مترنحة بإعادة انتخاب "الغراب" حاكما لها ، ملقية سلامها واستسلامها لسيدها وممتص دمها الأعظم . ويظل السارد منشغلا لسنين بجمع ألواح السفينة، وينفتح المصير على الغيب المجهول، وتتضارب الروايات بشأن الطوفان والفلك.

يستشرف الكاتب في هذه الرواية ثورة الشباب العربي المثقف أصحاب شبكات التواصل الاجتماعي: الفيس بوك، و تويتر.. الثائر على حكامه من الغربان الذين جاء بهم الأغراب، باعو أنفسهم لهولاكو رمز الأجنبي(الغربي)، عن طريق أصحاب الأحذية الخشنة رمز(لبعض العسكر)، وبمناصرة المتسلقين الوصوليين رمز(للأحزاب الطفيلة التي ظهرت على حساب الأحزاب الأصيلة ذات التمثيل الشعبي الحقيقي)، إنه الطوفان الذي تنبأ به الكاتب في نهاية القرن العشرين 1999، ليتحقق في بداية القرن الواحد والعشرين 2011، منطلقا من تونس لينتشر كالنار في الهشيم عبر الوطن العربي، لتتهاوى أمامه عروش الغربان الواحد تلو الآخر، ويبدأ تحرير الوطن من قبضة الغراب الذي جاء به الأغراب، و من كل معاونيه من المتسلقين الوصوليين من الأحزاب الطحلبية.

الحيز الزمني للرواية:

كتب عزالدين جلاوجي روايته"سرادق الحلم والفجيعة" بمدينة عين ولمان، ولاية سطيف بشرق الجزائر من ليلة 03 إلى 30 /1999/12بعد العاشرة ليلة كما جاء ذلك في توقيعه آخر الرواية(8)، ونشرها عام 2006.

هل فعلا أن هذه الأرقام الموجودة في توقيع الكاتب هي حقيقية أم رمزية، في اعتقادي أنها جميعا رمزية ذات دلالات لم يستطع الكاتب أن يبوح بها آنذاك لظروف خاصة عرفتها الجزائر.

بدأ المبدع كتابة روايته لثلاث(03) خلون من شهر (12) ديسمبر إلى آخر ليلة (30) منه في آخر عام من القرن العشرين 1999، هكذا وقع الأديب روايته، فما مغزى كل هذا؟

جاءت لفظة" ليلة" في بداية التاريخ لتدل على سودية الوضع الذي يغطي كل أحداث الرواية من أولها إلى آخرها، وجاءت هذه اللفظة في الخاتمة النصية للرواية لتتشاكل تشاكلا تاما مع لفظة الفاتحة النصية في عتبة العنوان التي هي: "سرادق الحلم" والتي توحي بالضبابية ، والسوداوية أيضا، وكل هذا يشي بذكاء خارق وعبقرية نادرة تميز بها المبدع عزالدين جلاوجي في كتاباته عموما وفي هذه الرواية على الخصوص.

إن الرقمين 03 – 30 يتشاكلان مع الطرفين المتبقيين من عتبة العنوان " الحلم والفجيعة" ويكشفان عن براعة الكاتب في بناء العنوان والتوقيع ،إن عنوان الرواية مكون من ثلاث كلمات هي : سرادق، الحلم، الفجيعة، فالحلم والفجيعة متباينان تباين03 و 30.

إن الذي يميز 03 عن 30 هو الموضع القبلي والبعدي للصفر،ومن هنا كان الرقم 3 رمزا للسرادق والفجيعة، وكان الصفر رمزا للحلم:

سرادق الحلم= 03 الحلم الفجيعة = 30

سرادق	الحلم	الفجيعة
3	0	3

فسرادق الحلم هو ثلاثة وصفر:03 ، والحلم الفجيعة صفر و ثلاثة هو:30، فسرادق الحلم هو ليلة الحلم، ونهاية الحلم هو الفجيعة.هكذا أراد المبدع بناء رؤيته السردية .إن الرقم الثابت في الرواية هو 3 وهو السرادق والفجيعة ، وأن الشيء المعدوم هو الحلم ويساوي صفر فلا طائل من ورائه، يذهب الحلم ويتبقى الفجيعة في سرادقها لقد قضت الطبقة المتسلطة على كل أحلام الشعوب، ولم تترك لهم غير السرادق والفجيعة.

يمثل العدد 30 نهاية الشهر ، ويمثل الشهر 12 نهاية العام ،ويمثل 1999 نهاية القرن، ويمثل التوقيع نهاية الرواية، هذه النهايات هي نهاية الحلم وانكشافه على الفجيعة، اختفى الصالحون(الشيخ المجذوب، والمدينة الفاضلة نون،) وبقي الفاسدون(المدينة المومس، والغراب الذي انتخب لحكم المدينة المومس).

أما الساعة العاشرة ليلا فهي إشارة إلى العشرية السوداء في الجزائر التي تميزت بغرائب أحداثها ، وعجائب أحوالها، شاب من هولها الولدان، وساد فيها الجور والبهتان، جعلت الكاتب يبدأ روايته على غير العادة بالخاتمة يقول فيها:" ومازالت الأجيال المتعاقبة تبحث عن قمة الجودي حيث رست السفينة...لكنهم لم يعثروا عليها أبدا رغم كثرة الفرق الأثرية المتخصصة من أرقى جامعات العالم.

ومازال الرواة والمؤرخون يجمعون الأدلة والبراهين للوصول إلى الحقيقة التي آلت إليها المدينة المومس ولم يصلوا إلى نتيجة بعد.

هل اكتسح الطوفان المدينة ومن فيها؟

هل نجا شاهد هذه الأحداث ومن كان معه في السفينة من ذلك؟؟

أو ربما لم يحدث طوفان أصلا...ولم تمخر السفينة عباب البحر وبقيت المدينة المومس كما هي.

ربما...ولكن أين ذهب الشاهد والشيخ المجذوب والهدهد وسنان الرمح؟ وهل وجد الشاهد حبيبته نون التي قضى عمره يبحث عنها؟

غير أن الملك شهريار أذاع يقينا أن ما حدث إن هو إلا أساطير الأولين ابتدعتها شهرزاد وعجائز المدينة الماكرات...إن كيدهن لعظيم. " وينهيها بمقدمة جاء فيها : " كان يا ما كان في قديم الزمان... وسالف العصر والأوان... كانت مدينة من أغرب البلدان... عاش فيها خلق ليسوا من بني الجان... ولا الحيوان... ولا الإنسان...وقعت لهم فيها أحداث أقرب إلى البهتان... يرويها لكم بطلها السيد فلانّ" . لذا جاء بناء الرواية على غير العادة الخاتمة في البداية والمقدمة في النهاية، كما جاءت افتتاحيتها مقتبسة من كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي:" الهوى مركبي ... والهدى مطلبي ... فلا أنا أنزل عن مركبي ... ولا أنا أصل إلى مطلبي ... أنا بينهما مأخوذ عن حقيقة الخبر بتمويه العبارة ..."(9)، يتماهى الكاتب من خلال هذه الفاتحة مع شخصية أبي حيان التوحيدي

المثقف ، القلق الذي مزقته نياط التهميش والاغتراب والعزلة، فيغدو استدعاء أبي حيان التوحيدي في شخص البطل رمزا وشاهدا على إقصاء المثقف الحقيقي وتراجع دوره.

هكذا بدت الفجيعة في بناء رواية الحلم، وهكذا استطاع المبدع أن يحقق رؤيته السردية في حلم روايته من خلال "الغريب" و"الغراب"

سميائية "الغريب" و " الغراب":

تتكون اللفظتان من الحروف نفسها(غ ر ب) ، بين "الغريب"و" الغراب" الكسر في ياء الغريب مما يوحي بتحطيم الغريب والقضاء عليه، والنصب في ألف الغراب الذي يوحي بالنصب والاحتيال ، وتتفق اللفظتان في ما عدا ذلك.

جاء في "لسان العرب" أن من معاني الغراب السواد الذي يتشاءم منه الناس جميعاً، والخبث والغربة والتطفّل على أخصب الأماكن وأجود التمور، وقالوا عن الأرض الخصبة: أرض لا يطير غرابُها، وقالوا: وجد ثمرة الغراب، أي أجود التمور وأحسنها. والغراب يعني كذلك البعد والاغتراب، والأسود الغرابيّ هو شديد السواد

"رأى دُرّةً بيضاء يحفل لونها سخام كغربان البرير مقصّب."

ومن الغراب الغروب والأفول والمغارب، ومنه مضاء الحدّ في القطع وفي الضرب: "ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"، أي الإبل الغريبة عن القطيع.

وقالوا: ذهب الغراب يتعلّم مشية القطاة فلم يتعلّمها، ونسي مشيته فلذلك صار يحجل، فأنشد بعضهم: "إن الغراب وكان يمشي مشيةً فيما مضى من سالف الأجيالِ حسد القطاة ورام مشي مشيها فأصابه ضرب من العقّالِ فأضلّ مشيته وأخطأ مشيها فلذاك سمّوه أبا المرقالِ."

"في البدء كان الغراب"، عبارة لافتة بالطبع، وساحرة سحر شؤم الغراب نفسه. من هنا نسأل كيف نحكي عن الشعراء والغراب، عن القصائد التي كُتبت عن هذا الطائر الذي لطالما ارتبط بالشؤم. يقول الشاعر وديع سعادة في "رتق الهواء:

"تعالَ يا غيم أريد أن أُوْدِع فيك آخر أسراري
أنا الغراب الذي أرسله نوح ولم يَعُدْ.
الغراب الذي صار الجهة الخامسة،
ويبحثون عنها ولا يجدونها."

يطلق الطابور الخامس- في الجزائر- على جنرالات فرنسا "أصحاب الأحذية الخشنة" كما سماهم وسيني لعرج في روايته الأحذية الخشنة، وكذلك سماهم عز الدين جلاوجي في سرادق الحلم والفجيعة، هذه الجنرالات خاضعة لأوامر أسيادها في الخراج والذين عبرت عنهم الرواية بشخصية " هولاكو" . الطابور الخامس لا يظهر في الصورة، ويحكم خلف الستار، يتسلط على رقاب العباد بقوة النار والحديد، ينزع من يشاء وينصب من يشاء على هيكل الرئاسة، يتلف ثروات البلاد،كما يتلف الغربان تمور النخيل، أما معارضوهم فهم الغرباء.

إن رؤيا الغراب وهو مؤذي يلحق الضرر بالغير أو أحس الرائي اتجاهه بانزعاج في الرؤيا فإن ذلك فيه تنبيه للرائي من شخص فاسد, في فكره انحراف وفي تصرفاته فسق. ودليل ذلك حديثه صلى الله عليه وسلم خمس من الدواب، كلهن فاسق ، يقتلن في الحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور(10).

من عجيب الرؤية السردية عند عزالين جلاوجي في سرادق الحلم والفجيعة ورود الرقم خمسة حين تحدث عن الغراب و من معه قائلا:" لقد قرر الجميع تشكيل أحزاب سياسية لينتقلوا بذلك إلى الحياة الديمقراطية تأسيا بالأمم المتحضرة.كان الجميع سكونا إلا من همهمات...ورمرمات... ودمدمات... وزمزمات... تزفر غيظا... دخانا. خمسة أحزاب كبرى تشكلت حتى الآن... وكان الغراب على رأس أكبر حزب في المقهى كلها سماه حزب جماهير الديمقراطيات الشعبيات*...وبعده حزب الحلزونات الشعبي... وحزب دودة الأرض للعدالة والمساواة وحزب...لست أدري لم تعد ذاكرتي قادرة على استيعاب كل هذه المعارف".وتأتي مشروعية التساؤل هنا عن ورود رقم خمسة، هل هي إشارة إلى أعضاء المجلس الرئاسي الخمسة بعد توقيف المسار الانتخابي في الجزائر سنة1992؟ أم لشيء آخر؟

لقد حملت الغربان سمعة سيئة منذ القدم، وتواترت هذه السمعة عبر الزمن، وساعدت عوامل كثيرة على رسم صورة قاتمة لها مثل لونها الأسود، ناهيك عن شكلها القبيح وصوتها النشاز، ونوعية غذائها وتلصصها، كل ذلك ساهم في رسم معالم هذا الطائر في شكل طائر أسود كئيب المنظر، يأكل الجيف، رديء الصيد، يسرق الطعام، انتهازي شرس، فتطيَّر منه الناس وتشاءموا من مجرد رؤيته، وألصقوا به الأخبار المشؤومة حتى صار رمزا من رموز التطير والفأل السيئ، وزاد على ذلك صوته المميز الكريه الذي ينذر عند سماعه بورود سيء الأخبار.(11)

ظهر في رواية سرادق الحلم والفجيعة الغراب وحزبه متسلطين علىغرباء الشعب يلصقون بهم التهم، وينفذون عليهم النفي والإعدام.

فمن هم غرباء سرادق الحلم والفجيعة؟ الغرباء في رواية" سرادق الحلم والفجيعة " هم الأطهار والأخيار أولئك الذين نأوا بأنفسهم عن أقذار المدينة المومس و أخدانها ، وعن الغراب وأحزابه من الفساق " حزب الديمقراطيات الشعبيات"(12). الغرباء في الرواية هم : الهدهد، النخلة،الحبيبة نون، الشيخ المجذوب، الكاتب،الذي كثيرا ما يعتقل من الغراب وحزبه اعتقادا منهم أنه (حي بن يقظان، أو القارح بن التالف، أو الفاني بن غفلا ، أو دخل بن دغل، أو هيان بن بيان،وكلهم من الغرباء المبحوث عنهم من الغراب وحزبه في المدينة المومس).

الغريب في سرادق الحلم والفجيعة هو المثقف الطاهر الصالح وجماعته من الأخيار الأطهار .

الهوامش والتعليقات:

[1] – عزالدين جلاوجي أحد أهم الأصوات الأدبية في الجزائر، درس القانون والأدب وتخصص في دراساته العليا في المسرح الشعري المغاربي، اشتغل أستاذا للأدب العربي، بدأ نشاطه الأدبي في سن مبكرة ونشر أعماله الأولى في بداية الثمانينيات عبر الصحف الوطنية،له عدة مؤلفات . أهمها: **في الدراسات النقدية:**

النص المسرحي في الأدب الجزائري ط1 و ط 2 ،

شطحات في عرس عازف الناي اتحاد الكتاب العرب بسوريا،

الأمثال الشعبية الجزائرية بمنطقة سطيف ط 1 ط 2 .

زهور ونيسي دراسات في أدبها،

في الروايــة:

سرادق الحلم والفجيعة ط1 ط 2

الفراشات والغيلان ط1 ط 2

راس المحنه ط1 ط 2

الرماد الذي غسل الماء ط1 ط 2

الأعمال الرواية غير الكاملة (4 روايات)

في القصــة :

لمن تهتف الحناجر؟

خيوط الذاكرة

صهيل الحيرة

(رحلة البنات إلى النار) ضم جملة قصصه القصيرة

في المسـرح :

النخلة وسلطان المدينة (مسرحية)

تيوكا والوحش ورحلة فداء (مسرحيتان)

الأقنعة المثقوبة غنائية أولاد عامر (مسرحيتان)

البحث عن الشمس وأم الشهداء (مسرحيتان)

الأعمال المسرحية غير الكاملة (13 مسرحية)

في أدب الأطفال :

ظلال وحب 5 مسرحيات

الحمامة الذهبية 4 قصص

العصفور الجميل قصة نالت جائزة وزارة الثقافة 1996

الحمامة الذهبية قصة

ابن رشيق قصة نالت جائزة وزارة الثقافة1997

أربعون مسرحية للأطفال

[2] . Lucien Goldman,Le Dieu caché,Gallimard,Paris, 1979,p.26.

[3] . ibd ,p,29.

[4] . لوسيان جولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية و النقد الأدبي، راجع الترجمة محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط 1، 1984، ص113

[5] . عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2008، ص259.

[6] – مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر– دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية– ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2000، ص105.

[7] . الرواية ، ص29.

[8] . http://www.syrianstory.com/amis-3-17.htm يوم زيارة الموقع 2011/5/7 . الساعة 4:30

[9] – أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق عبد الرحمان بدوي،دار القلم، وكالة المطبوعات، بيروت،الكويت،1981م، ص157

[10] – http://www.22522.com/vb/showthread.php?p=1843294

24. 05– 2001 الساعة 03:00 صباحا

[11] – http://www.elaana.com/vb/t56861

24 .05– 2001 الساعة 03:00 صباحا

[12] – عزالدين جلاوجي، الرواية. ص 6.